

التمرد السياسي في قصيدة (صحابة هذا العصر) لأحمد حسن المقدسي¹

THE POLITICAL REBELLION IN THE POEM (COMPANIONS OF THIS ERA) OF AHMED HASSAN MAQDISI

د. رمضان حينوني

قسم اللغة العربية وآدابها، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي بتامنغست (الجزائر)

ramdanne@gmail.com

تاريخ النشر: 2018/06/10

تاريخ المراجعة: 2018/05/13

تاريخ الإيداع: 2018/03/07

ملخص:

يعالج هذا المقال ظاهرة التمرد السياسي عند الشاعر الفلسطيني أحمد حسن المقدسي، الذي يعاني حرقا احتلال بلاده واستمرار الوضع المأساوي لشعبه، ويركز بالأساس على العوامل الدافعة لتمرده ومميزات معجمه وصوره الشعرية التي جسدت ذاك التمرد، كما وقفت على طريقة الشاعر في بناء قصيدته، وبخاصة ظاهرة تكثيف الأوصاف القبيحة للتأثير في الآخر، والارتكاز على فضح الواقع دون اختباء خلف الرموز والأقنعة. كلمات مفتاحية: التمرد؛ السياسة؛ أحمد حسن المقدسي؛ الاحتلال؛ فلسطين؛ العرب؛ معجم التمرد؛ الصورة الشعرية.

Abstract:

This article examines the phenomenon of political rebellion in the Palestinian poet Ahmed Hassan al-Maqdisi, who is suffering the occupation of his country and the continuation of the tragic situation of his people. The article focuses mainly on the factors of his rebellion and the characteristics of his dictionary and his poetic image, also shows how the poet constructed his poem, in particular the phenomenon of intensifying ugly descriptions to influence the poetry, and expose the reality without hiding behind the symbols and masks.

Keywords: rebellion; politics; Ahmed Hassan al-Maqdisi; occupation; Palestine; Arabs; dictionary of rebellion; poetic image.

تمهيد:

في ظل التحولات التي تشهدها القصيدة المعاصرة، بفعل جملة من الأحداث السياسية والاجتماعية التي يمر بها العالم العربي، اتخذ التمرد حالة صدامية عنيفة في مواجهة الأحداث السريعة المتلاحقة، عاكسا حجم اليأس والخيبة التي تتراكم تباعا على الشاعر الطامح إلى استرجاع أمته مجدا ضائعا وهيبة مفقودة، فمال إلى نوع من التصوير القاسي الخادش لنظم وعروش يرى أنها تساهم بشكل من الأشكال في استمرار الأزمات السياسية العربية بعامة، وضياع حقوق الشعب الفلسطيني بخاصة، بحكم أن قضيته هي التي عدها العرب قضيتهم الأولى منذ النكبة عام 1940.

وفي مجال السياسة، ومن جملة الظواهر التي طغت على الشعر العربي المعاصر، يتفرد التمرد بالاهتمام لأنه يضع الشاعر وجهها لوجه أمام المصاعب والمخاطر، إذ لا يكون في مواجهة فرد عادي من أفراد

المجتمع، بل فرد أو جماعة تمثل الدولة أو النظام، وعندئذ تخرج القضية عن كونها مواجهة فردية إلى كونها مواجهة مبدأ أو موقف، فتتعاضم المواجهة وقد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه؛ إذ يصبح الشاعر تطارده الاتهامات هيّنها وعظيمها، أقلها وأبسطها تئيس الناس وإشعارهم بالهزيمة.

من هنا تتجلى إحدى أهم العلاقات التي تربط الشاعر بوصفه مثقفا بالسلطة، حين يتبادلان التهمة الأبدية بالخيانة، فالشاعر خائن عندما يؤلب الرأي العام ضد رجل السلطة، والسلطوي خائن عندما لا يحقق الأمنيات العليا للمحكومين، فنكون حيال معركة متواصلة في صمت أحيانا وفي جلبة وضوضاء أحيانا أخرى، يوظف فيها كل طرف ما تتيحه أدواته من أسباب الغلبة والإظهار، وإن كانت تلك الأدوات مختلفة ومتباينة.

وإذا كان الشاعر يبدو طرفا ضعيفا في هذه المعادلة من المنظور المادي، فإن سلاحه المعنوي لا يعدم الوسيلة للتحدي ولفت الانتباه، كما فعل في العصور الخاليات عندما كان يجد نفسه في المواقف الصعبة المخرجة؛ ولدينا في التاريخ الإنساني ما يظهر صواب هذا الرأي، حتى وإن كان الشاعر غالبا لا يندفع إلى مثل هذه المواجهات إلا إكراها لأن رسالته الحقيقية على حد رأي فرانس فانون هي "ابتكار النفوس الجديدة"² وخدمة الإنسان ونقل همه وانشغاله، وتصحيح وضعه إن كان ذلك ممكنا لا أن يُشغل نفسه بما ينغص عيشه ويقض مضجعه، فإذا أكره استحالة كائنا هائجا متمردا يغوص في أعماق اللغة بحثا عن معجم هجومي قاس، وصفات صدامية موهلة في الإغابة والقبح، وكأنما يريد أن يضيف على سلاحه المعنوي الضعيف قوة وحدة يرى أنهما كفيلتان بإحراج الخصم والتقليل من شأنه وربما دفعه إلى الاختباء وترك المكان.

فما الذي دفع الشاعر العربي المعاصر إلى رفع هذا التحدي في وجه القوة التي يمثلها السياسي؟ وإلى أي مدى استطاع الشاعر أن يلبس الكلم لهيب التمرد الضاري، متجاوزا حدود ما تسمح به العلاقة بين الحاكم والمحكوم؟ وكيف امتلك الجرأة على اختراع الصور الموهلة في السوء بل في البذاءة والقبح؟

عوامل يأس الشاعر المعاصر: منذ كان الشاعر ناطقا باسم القبيلة ارتبطت به صفات مثل الشجاعة والحماسة والجرأة والإرادة القوية التي تتحدى الصعاب، وظل كذلك حتى في فترات الاحتلال الأجنبي أين بلغ جبروت المستعمر في التقتيل والتنكيل والهدم مداه، حينها تغافل الشاعر عن كل النقائص وركز على تصوير العدو الغاشم وممارساته، واستنهض الهمم للذود عن الأوطان كهدف أسمى، لكنه ومع نيل الشعوب حرياتهما، واعتلاء أبناء الأوطان مناصب الحكم والسياسة، رأيناه يراقب الوضع عن كتب؛ فيساير الاتجاه العام حين يعتقد أن سياسة البلاد تحقق النتائج المرجوة خصوصا في المجال الاجتماعي المرتبط بحياة الناس، ولكن سرعان ما تبدأ متاعبه مع بني جلدته تنمو وتتعاظم كلما خرجت الأمور عما كان يتمنى ويحلم، بصرف النظر عما إذا كان على حق دائما أو مُجانبا له.

غير أن القضايا الداخلية مهما بدت مُقلقة فإن الشاعر العربي لم يذهب في شأنها أبعد من النقد الذي يرجو منه تقويم ما اعوج، حتى وإن مال أحيانا إلى الغلظة في القول والالتهام في القصد؛ أما في القضايا الخارجية، فقد ارتفعت عنده وتيرة النقد لتبلغ حدا عظيما وصل أحيانا إلى الخروج عن لياقة الخطاب وأدب الحوار، وما زاد الأمر تعقيدا، استمرار احتلال فلسطين وما يمثله ذلك من إحساس بالذل والعار عند أغلب الشعراء العرب، على افتراض أن حجم العرب جغرافيا وسياسيا وبشريا أكبر بكثير من الكيان الغاصب، فكان يجب في نظره أن تنتهي هذه القضية منذ زمن بعيد، لأن بقاءها دليل على خلل استراتيجي يتحمل مسؤوليته حكام البلاد وساستها. وظل الأمل مربوطا بالزعماء الواحد تلو الآخر بيد أن الأمد طال دون النتيجة المرجوة.

ولقد تضافرت عوامل عدة في تشكل نوع حاد من اليأس الذي يدفع إلى ردة الفعل العنيفة، أهمها:

العامل الديني: لا شك أن للإسلام كلمة مسموعة وحضورا قويا عند أغلب العرب المنتمين إليه، فهم يرجعون إليه بوصفه ملاذهم الآمن، والضامن لعزتهم وكرامتهم ووحدتهم، يجدون في نصوصه ما يرفعهم إلى التقدم والعلا في مختلف شؤون الحياة، وفي العمل به ما يجعل الحياة يسيرة سهلة مطمئنة، لكن الناظر إلى حال الأمة عموما يجدها لا تعكس هذه الصورة ولا تمثلها التمثيل الحقيقي؛ فقد استكان الناس إلى التبعية والتقليد والانهار بالآخر، وحصدوا نتيجة ذلك ذلة وهوانا انعكسا على قضاياهم التي يعدونها مصيرية مثل الحفاظ على كياناتهم ووحدتهم، وتحرير أراضيهم من عدوهم، وتحقيق عزتهم بين الأمم الأخرى. بل أكثر من هذا، فقد نزل الخطاب الديني في أحيان كثيرة إلى الاهتمام بصغائر الأمور، وتشويه الحقائق وقلب المسلمات تحت ذرائع عدة نتج عن ذلك كله اهتزاز لهيبة الدين ابتداء، وضعف في الإيمان بالقضايا العادلة وتنازلا عن الحقوق المستحقة، انتهت إلى التفریط في ما كان الهدف الحفاظ عليه، فانتشر التطرف والتطرف المضاد في القول والفعل، ودخلت المجتمعات العربية في نفق مظلم زاد من مأسيتها وتخلفها، وشدها إلى الوراء في زمن نشدان التقدم والرفق.

العامل التاريخي: وقد بدا واضحا من خلال المقارنة بين فترتين من تاريخ هذه الأمة، الأولى حين كان العربي المسلم سيد العالم، يأمر فيطاع، ويطلب فيُلبى، فكان هو الفاعل تزيينه مبادئ وخصال بلغ صداها كل مكان، وخلدها التاريخ بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء، وفرة أخرى أصبح فيها هذا العربي ضعيفا مستكينا يتعرض للغزو والاحتلال، ويطلب الحق والعدل الذي كان يتغنى بهما حين كان قويا مهيبا فلا يجد لهما سبيلا، واستطاع بالرغم من ذلك أن يحرر وطنه الصغير الذي ينتهي إليه، وأزر أخاه ليحذو حذوه في وطن عربي آخر، لكنه وجد أوطانه تلك محكومة بالتفرقة والاختلاف خاضعة لمخططات الاستعمار السابقة لاستقلالها، فلا تستطيع الوصول إلى الوحدة والتكتل، وبخاصة أن جزءا منها يرزح تحت احتلال صهيوني يزداد ويتغول.

هذه المقارنة في واقع الأمر تركت أثرها البالغ في نفس الشاعر المعاصر، دفعتة إلى تأمل طويل في أحوال الأمة التي ينتهي إليها ولا يريد فك الارتباط بها، وإلى بحث متواصل عن أسباب استمرار هذا الوضع

السليبي الذي تدفع الأمة ثمنه باهظا على مستويات عدة؛ وبما أنه صاحب الكلم والبيان، واقتداء بالسالفين من أمثاله، رأى أنه من الضروري أن يسخر هذه الطاقة الإبداعية في محاولة توجيه الأمة إلى ما يراه خيرا لها ومجدا لأبنائها وفق رؤية معينة، حتى إذا طال الأمر فوق ما كان يرجو ويأمل غيّر من طبيعة خطابه، وأبدى مزيدا من الخشونة في صياغته، بل ربما مال به إلى ما يمس المشاعر أو يخدش الحياء، وكأن ذلك آخر ما بقي له من حيل لضرب خصمه والتأثير عليه.

العامل السياسي:

كلا العاملين السابقين انعكسا بشكل مباشر على العامل السياسي، ذلك أن السياسة تتأثر بكل ما يحدث في الحياة وما يستجد فيها من أفعال وأقوال. وهي بناءً على ذلك أكثر الميادين اضطرابا وتقلبا، وأكثر الحقول جدلا واختلافا، فلا غرو أن تكون نتائجها خطيرة وعواقبها وخيمة، وبخاصة في عالم تحتدم فيه الصراعات والنزاعات حول مصادر النفوذ والثروة وغيرهما.

وما زاد الأمر تعقيدا بالنسبة للشاعر العربي فشل السياسات العربية التي حاولت تخليص أرض فلسطين من الاحتلال على الرغم مما أُعدَ لهذه الغاية من جيوش ووسائل، ناهيك عما تسهله الجغرافيا من إمكانية التحرير، فبسبب من قداسة الأرض وعروبة الجذور ظلت فلسطين في ضمير الإنسان العربي الأرض التي يجب أن تعود إلى أصحابها وتنضم إلى أمتها، وعلى هذا الأساس بنى الشاعر آماله بداية الأمر، وعليه خاض معاركه الإبداعية دفاعا عما يراه قضية العروبة والإسلام الأولى، وهجومًا على كل من يرى فيه بصيص مساهمة في بقاء الوضع على ما هو، أو تدهوره وسيره في اتجاه تكريس الاحتلال بشكل أو بآخر.

ويمكن القول بشيء من الثقة أن القضية الفلسطينية هي واحدة من القضايا التي صنعت الشاعر العربي (المتطرف)، ذلك التطرف الذي يعني عدم الاعتراف بمسك العصا من الوسط؛ فهو إما راض منبسط لشيء يراه إنجازا، أو غاضب ثائر على شيء يراه تقصيرا وخيانة، وفي الحال الثانية يندفع الشاعر مسخرا كل طاقته التعبيرية في نقل رؤاه، غير معترف بحدود الأدب واللياقة أحيانا، وكأنما يغرد وحيدا في عالمه غير آبه بغيره.

وفي مجال التمرد السياسي الذي نحن بصدد الحديث عنه، تكاد تكون هذه القضية محوره الأساس بدرجات متفاوتة عند الشعراء على غرار ما نجده عند أحمد مطر ونزار قباني ومظفر النواب وأحمد المقدسي على سبيل المثال، وأربعتهم من شعراء السياسة بامتياز جمعتهم القضية الفلسطينية التي عانت - في نظرهم - في محيطها العربي من الإهمال والتقصير والعجز ما جعلها تزداد تعقيدا عامًا بعد آخر، وتفقّد أوراقها الراحلة كلما تداولت عليها المآسي من النكبة إلى النكسة إلى اتفاقات السلام الكاذبة.

أحمد حسن المقدسي والتمرد السياسي:

كان لا بد أن يكون الشاعر الفلسطيني أحمد حسن المقدسي متمرداً، فالأرض التي ينتمي إليها تتأكل سنة بعد أخرى، والعجز العربي عن استرجاعها يزداد كلما تقادم العهد وازدادت الضغوط الخارجية، وكثير المستسلمون للأمر الواقع الذي تحاول القوى العظمى فرضه بشتى الطرق. ولقد أضحت القمم العربية المتلاحقة دون قرار حاسم شجاع أو فعل إجماعي يغير من الوضع القائم محل سخط وسخرية من أغلب الشعراء المتمردين؛ ذلك أنها ظلت تعالج خلافات العرب فيما بينهم دون نتيجة أيضاً أكثر من محاولتها الجادة لإيجاد حل يضمن استرجاع الأرض، فـ "دكانة القمم التي لا تنتهي ليست تبيع لنا سوى الأحقاد"³، فتحوّلت إلى مضحكة ومأساة في الآن نفسه، ما دعا الشعراء إلى السخرية المرة من جلساتها، بل إلى دعوة بعضهم قاداتها إلى عدم عقدتها لأنها لا تكشف في نظره سوى عن نماذج بشرية غريبة.

يقول المقدسي في قصيدة (قمة نافخي الكير)⁴:

كَنَافِخِ الْكِيرِ غَيْرَ الْحَرَقِ مَا غَنِمَا	فِي قِمَّةٍ لِلْعُمُرِ يَأْتِي الْقَوْمُ ثَانِيَةً
وَجَاهِلٍ - بَامْتِيَازٍ - يَنْشُرُ الْحِكْمَا	فَتَافِهِ سَوْفَ يُزْجِينَا نَصَائِحَهُ
بَخُطْبَةٍ تُشْعَلُ النِّيرانَ وَالْحِمَمَا	وَتَاجِرِ سَيْغُطِي قُبُحِ سَوَاتِهِ
فَسَوْفَ يُصْبِحُ نَسْرًا يَذَرُ الْقِمَمَا	أَمَّا الْعَمِيلُ فَحَدَّثَ عَنْهُ لَا حَرَجَ

ولا يتعب الشاعر على امتداد ديوانه الشعري من ترداد هذه الأوصاف وغيرها، وكأنما يزداد يقينا بصحتها أو مطابقتها لواقع الحال، حتى غدت لا تطاق فتولد في نفسه تمردا على حد وصف ألبير كامو الذي جعل حركة التمرد مستندة "إلى رفض قاطع لتعد لا يطاق، وإلى يقين مبهم بوجود حق صالح... فلا بد للتمرد من أن يكون مقترنا بشعور المرء بأنه على حق بصورة ما وفي مجال ما"⁵ وما الحق الصالح عند شاعرنا غير الكف عن التظاهر بنصرة فلسطين، وترك شعبها يشق طريقه نحو حريته دون عرقلة أو تأمر. وبما أن الشاعر معني بشكل مباشر بتطورات القضية الفلسطينية فما من شك في أنه يتألم أكثر من غيره، والمتمرد هو "ذلك الذي تألم فتمرد... يتذرع بحجة الثائر الدائمة: محبة البشر"⁶ أو محبة الحقيقة عندما تخلو من الافتعال والزيف.

إن إطلالة على عناوين قصائده كفيلة ببيان مدى ما يحمله المقدسي من غضب مما يحدث في هذا العالم العربي الغريب، حتى أن مجرد قراءة العنوان تنبئ بما تحتويه القصيدة من معجم وتصوير تمرديين طاغيين يعبران عن تجربة المقدسي الواضحة مع الواقع المرفوض في داخله. فإذا قرأنا هذه العناوين: (السلطة الأكذوبة - نعل أكبر من جيوش العرب - هيئة الأمم - تحرير فلسطين يبدأ من صعدة - العقل في العالم العربي

عقاب- قمة الخيبات – التفاوض بالقبل- أبشروا فلا قمم بعد اليوم- ذيل الكلب لا ينعدل...) وغيرها، أدركنا أن كل اهتمام المقدسي أن يعبر عن رفضه لما يحدث في البلاد العربية مما له علاقة بالقضية التي يدافع عنها.

وبعيدا عن الخطاب السياسي الرسمي الذي يحاول جهده التخفيف من حجم المآسي التي يعيشها الإنسان البسيط، فإن الخطاب السياسي الشعري ينظر يعد ترجمانا حقيقيا للخطاب السياسي الشعبي الذي يردده الناس في مجالسهم ويتداولونه في نقاشاتهم. وهكذا، فوحده الخطاب الرسمي الذي يبدو شاذا بعيدا عن التعبير عما يراه الشارع وبخاصة في زمن التكنولوجيا والفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي، ولهذا اكتسب الشعراء المتمرّدون عطف القراء بوصفهم معبرين عما يشعرون به ويرونه رأي العين، في زمن لم يعد يخفى فيه شيء طويلا حتى يتكشف ويبين، ولهذا أيضا دخل الشعراء المتمرّدون في مواجهات مع الطبقات الحاكمة في أوطانهم لأنها تنظر إليهم على أنهم خصوم وأعداء، وإن كانوا يحبون البشر ولو كانوا حكاما عندما يُحقّقون الحق الذي يسعون إلى إحقاّقه.

معجم التمرد في قصيدة (صحابة هذا العصر):

لا نستطيع القول إن معجم التمرد المعاصر قد اختلف عن نظيره في القديم اختلافا كاملا، لكننا نلاحظ فيه تطورا نحو التصعيد في النبرة بما يتلاءم وحجم الإحساس بالأسى والإحباط في نفس الشاعر، حتى يصل الأمر أحيانا إلى استعمال الكلمات السوقية النابية كتعبير عن الرفض المطلق لتصرف أو قرار سياسي ما. والشاعر في ذلك شديد الشبه بالسجان في استعمال أساليب التعذيب؛ فحين يرى أن أسلوبا صار لا يؤثر في السجين كثيرا يعمد إلى آخر أكثر إيلاما وقسوة يشفي به الغليل، وهكذا تزداد وتيرة ابتكار البديل بقدر صمود الطرف الآخر في التصبر.

إن معجم التمرد التقليدي كان يلتزم في الغالب الأعم حدودا أخلاقية لا يتعداها مثل التعبير عن الحزن ونقد السياسات والتصرفات وما إليها، لكن ذلك المعجم كان لا بد أن يتغير بفعل كبر القضايا المعالجة وتعدد الحياة المعاصرة، فلم تعد الألفاظ المألوفة شعريا تحرك ساكنا، فنابت عنها أخرى عنوانها الرئيس هو اتهام الآخر بالعمالة والانبطاح وخيانة الأمة وغيرها من قبيل الخصي والمزيلة والخسة والتعريض والبغاء والعهر وما إليها.

في قصيدة " صحابة هذا العصر"⁷ للمقدسينرى الشاعر مركزا تمردا على الأنظمة العربية التي رأى أنها خذلت شعبه، فصب عليها سوط غضبه، ونستطيع أن نتبين في معجمه ذاك مستويين:

المستوى الأول: يشمل ألفاظا وتعبيرات قاسية لكنها متهذبة بحكم ورودها كثيرا عند الشعراء الذين يجدون أنفسهم في موقف الهجوم على الخصم ومحاولة القضاء عليه معنويا، يقول الشاعر:

إني أخط قصيدتي بجذائي فالجبر لا يُجدي مع العملاء
سوح تفيض بزهر دماننا وشوارع تكتظ بالأشلاء
من أين نأتي للخسيس بعزة ما دام مَولودا بغير حياء
ماذا أقول لزمرة ماتت ضمائرهما وباعت رهما بهباء
نظم تعيش على دماء شعوبها وتُشيد صرح الحكم بالإقصاء
تلك المهالك ليس فيها غير أر صدة.. وتُغريص ووكر بغاء
إلى أن يقول:

يا غزة الشّماء موتي حرة لا تَنشُدي نصراً من الجبناء
فأولاء أرباع الرجال وأصبحوا يتسابقون إلى اللواط أولاء
كرزائنا في الظّهر يطعننا، يَبْثُ ث سمومه السوداء في الأجواء
كرزاي يرقص للمذابح فَرحة ليعود في صُرمية الأعداء⁸

هذا الحشد من الألفاظ مثل (العملاء، الخسيس، تعريص، وكر بغاء، الجبناء، إِباع الرجال، يتسابقون إلى اللواط، كرزاي)، يستعمله الشاعر بكثافة معبراً عن غيظه مما حدث، وهي تحاول رسم لوحة قبيحة منفرة تعاكس تماماً ما يسعى الحر الشريف إلى الاتصاف به، وبخاصة الإنسان العربي طالما جاهد ليكسب عكس هذه الصفات التي تزرى بالإنسان إلى الحضيض، كما تدل على ذلك ثقافته الممتدة عبر التاريخ، والمرتبطة بسمات الشجاعة والنبيل والشرف. فالشاعر ينطلق من افتراض أن هذه الألفاظ مؤلمة للحاكم لأنها تخالف الصورة التي يريد لها لنفسه ولو في العلن، كما أنها تجعل القارئ أكثر ميلاً إلى تصديقه ومؤازرته في معركته ضد من خانوا القضية.

المستوى الثاني: يلجأ الشاعر إلى استعمال نوع مقرر من الألفاظ يتعفف عن قوله الإنسان إلا اضطراراً، يقول المقدسي:

جاءت إلى أرض الكنانة مومس وأستقبلت بالورد والحناء
بالت على تلك الوجوه وأهلها فتبركوا من شخّة الشقراء
وتبرّزت فوق الزعيم وعرشه فتجشأوا من خريّة الحسناء
إلى قوله:

تف على هذي العروش وأهلها وعلى اللحى وشوارب الزعماء
سأقيء فوق وجوهكم ورؤوسكم وأصّب من فوق الجيوش خرائي
هذي بنادقنا لكم .. فلرّبما ردّت إلى الخصيان بعض حياء

فألفاظ (البول والبراز والبصاق والقيء) وما ينتج عنها من قذارة ومهانة نقلة في نوعية التعبير التمردى لدى الشاعر، وكأنما لم تكفه الكلمات المهذبة ليتها إلى غيرها مما يشوه الصورة ويقضي على أي ميزة حسنة أو إيجابية لهذا الحاكم أو ذاك؛ ذلك أنه يتصور حجم الحصانة التي يتمتع بها الخصم ضد الأوصاف السيئة الاعتيادية، وكأنها لم تعد تحرك فيه ساكنا، فيتجه إلى الإيغال في ذكر ما يجرح الشعور ويزيد في الحرج، رجاء شفاء غليله من وضع لم يستسغه ولم يروجها لاستمراره وقد بانت مآسيه وأضراره البليغة على البلاد والعباد.

إن لجوء الشاعر إلى هذا النوع من المعجم القبيح دليل على تفاقم الوضع العربي وانحداره إلى مرتبة مخيفة من السوء، بل إنه مؤشر خطير على سوء العلاقة بين الحاكم والمحكوم في عالم لم تتوقف مشاكله السياسية والاجتماعية عن التفاقم منذ أن وقع فريسة المخططات الاستعمارية التي فككتة وفقرت شمله، والشاعر هنا يقتفي أثر الشعراء المتمردين الذين يواجهون واقع القبح، "ذلك أن مواجهة القبح ليست بالفرار منه، أو بأن يستبدل به الشاعر على مستوى الوهم واقعا بديلا جميلا، وإنما بالتحديق في القبح بما يكشف عن نقيضه في داخله، ومناوشة قمعه بما يقصف برائنه، وتعرية شروطه بما يبين عن إمكانية تدميرها".⁹ على الرغم من صعوبة المواجهة وما قد يترتب عنها من عواقب في المجتمعات التي توصف بصفات من قبيل القمع والاستبداد وما إليها.

صورة التمرد في قصيدة (صحابة هذا العصر): في هذه القصيدة إشارة لصمود المقاومة الفلسطينية في وجه الاحتلال الصهيوني في عدوان 2009، وما يستدعيه الموقف من الفخر بأبطالها وما حققوه من صمود في وجه عدوهم، إلا أن صورة السخط غلبت على النص وهيمت عليه؛ فالشاعر يعاني مرارة الحنق والحقد بسبب هذا الذي يراه العدو الداخلي ممثلا في الذين ساهموا في هذا العدوان من العرب بشكل أو بآخر قصد الانتصار على المقاومة الشريفة، وإنهاء وجودها ومن ثمة تمهيد الطريق للتخلص من هذه القضية برمتها، مستلهما روح قول الشاعر القديم الذي رأى أن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة، فقال:

إن كان طعني من عدوي قاتلا فأشد منه خيانة الشركاء¹⁰

يكاد هذا البيت إذن يكون مفتاح القصيدة الأساس، يجملها ويلخصها ويرسم اتجاهها، فمنه تتصاعد مشاعر السخط والغضب على أمة لا تعرف كيف تبني مجدها، وتحافظ على كيانها في ظل المؤامرات التي تحاك لها؛ فهو لا يراوغ في الإشارة إلى موطن الداء، فيتجه مباشرة إلى الرؤوس والأنظمة لا إلى الشعوب والأفراد، وهو في ذلك يستعين بصراحة مكشوفة في شكل صور قبيحة واضحة، وكأنما أراد إيصال الرسالة مفهومة عارية من كل رمز أو قناع، فتفصح ما يراه الشاعر سلوكا سياسيا خاطئا له عواقب مستقبلية خيمة.

تقاسم النصّ ثلاثُ صور متكاملة في شكل عضوي تنازلي؛ فالصورة الأولى تعكس خذلان الأمة وصغارها وتقاعدها عن فعل شيء ملموس لقضيتها المركزية، بل لقضايا شعوبها أيضاً، وما دامت لا تنفع شعوبها المحلية فهي لا تستطيع - في اعتقاد الشاعر- أن تنفع غيرها، يقول المقدسي:

ماذا أقول لزمرة ماتت ضمّا ثرها وباعت ربها بهباء
نظم تعيش على دماء شعوبها وتُشيد صرح الحكم بالإقصاء
تلك المهالك ليس فيها غير أر صدة.. وتُغريص ووكر بغاء
هذي مزارع طوّبت لولاتها والناس أحذية لدى الأمراء
دول ابتذال أوغلت في عُهرها وتَسَمَّرت بخنادق الأعداء
هي خنجر الأشرار فوق رقابنا وجراب غدر في يد الدُخلاء¹¹

هذه الصفات المتلاحقة مثل طلقات رصاص تخبي خلفها حقدا وغيظا على الطبقة الحاكمة في عمومها، التي تعبر عنها الألفاظ الواضحة (نظم- دول- مهالك- مزارع)، فهي التي أساءت علاقتها بربها فكان طبيعيا أن تسيء أكثر إلى شعوبها التي لا تعدو في نظرها غير كونها أحذية تلبس أو مطايا تركب. ويُقلّب الشاعر صورتها على أوجه قبيحة عدة قوامها العمالة للدخلاء والاستخفاف بالشعوب، بل وسفك دمائها أحيانا حفاظا على مزاياها وخوفا من ضياع الأمر من يدها.

هذا الحريق، صناعةً عربية، من شلةٍ تعتاش بالأهواء
فحصارُهم وحصارُكم هو ذاته للقتل.. رغم تعدد الأسماء
أوليس هذا من نتاج حواركم وتلاقح الشيطان بالشمطاء¹²

وتبدو هذه الصورة القاتمة مستلة من شعور الفلسطيني الذي يتوق إلى الحرية التي نالها غيره، ولا شك أن هذا الوضع مُتفهم من شاعر يرى التقصير في الفعل العربي بعد أن كبلت أيادي شعبه بالقيود التاريخية والسياسية منذ النكبة إلى الآن، وبخاصة بعد سلسلة الاتفاقات التي وعد فيها الشعب الفلسطيني بإقامة دولته المستقلة.

ينتقل الشاعر من هذه الصورة الواسعة التي تخص العرب جميعا وعجزهم عن تحقيق ما يعدونه الهدف الشعبي التاريخي باسترجاع فلسطين، إلى صورة أضيق منها تتعلق بالجوار المباشر لغزة المقاومة، فيرى أن مصر التي من المفترض أن تكون حاضنة شعبه بوصفها دولة مهمة في المنطقة لم تتخلّ فقط عن هذا الدور التاريخي، بل عملت على التأمر من خلال التضييق على المعابر التي عدت شريان الحياة لشعب محاصر في حيز جغرافي صغير:

هل هذه أرض الكنانة يا ترى أين المعز ووارث الخلفاء
كيف استحالته نعمة موبوءة تتوسل الجزار باستجداء
كافور يطعن مصر في أحداقها ويحيلها جيشاً من البؤساء

.....

عجبا.. معابر مصر قد فتحت لموتانا ولم تفتح إلى الأحياء
شكرا لكم، فلتقطعوا عنا الهواء لتضمّنوا التوريث للأبناء
أوليس في أرض الكنانة خالد ليريحنا من هذه الحزباء؟¹³

تعبّر الأبيات السابقة عن حجم القلق والحيرة اللذين ينتابان الشاعر، فهو يستعمل أساليب الإنشاء الدالة على الاضطراب والانفعال مما يحدث، وكأنه يعيش في حلم أو خيال، لهذا جاء الاستفهام (هل- أين- كيف- الهمزة)، والتعجب (عجبا)، والأمر (فليقطعوا)، للتعبير عن سخطه العارم عن تغير الأحوال في المنطقة، إلى درجة أن الأولوية صارت للأموال على الأحياء، ففي الوقت الذي يحتاج فيه الناس إلى المعابر لإنقاذ الأحياء توصل في وجوههم، وعندما يموتون تفتح لهم استثناء، وكأن الدعوة إلى الموت أقوى من الدعوة إلى الحياة.

ويزداد الشاعر غيظا حين يرى أنه بالرغم مما تعانيه الأراضي الفلسطينية من هذه المظالم التي يعرفها العالم، إلا أن القاتل المغتصب يدخل مصر آمنا مطمئنا مرحبا به من دون أن يخشى اعتراضا أو تنديدا أو رفضا لممارساته:

جاءت إلى أرض الكنانة مومس وأستقبلت بالورد والحناء
بالت على تلك الوجوه وأهلها فتبركوا من شخّة الشقراء¹⁴

هذه المفارقة العجيبة لم يستسغها الشاعر ولم يتفهمها، فكانت عاملا آخر من عوامل الشعور بالإحباط وخيبة الأمل، وهو ما ولد جرعا إضافية من السخط على قادة هذه السياسات التي عاكست كل منطق وخالفت كل عرف.

في الصورة الثالثة يلتفت الشاعر إلى أهل غزة وقد رأى أنهم وحدهم قادرون على تقرير مصيرهم، وكأنما يريد منهم نفض أيديهم من محيطهم العربي الذي وهن واستكان تحت وقع العمالة والخيانة، بما في ذلك فريق من هذا الشعب - ممثلا في السلطة الفلسطينية- سار في ركب حوار مختل أو حوار القبل كما سماه، فكانت نتيجته مزيدا من الضياع، وهكذا تقضم الأرض ويشرّد الشعب، والسياسات السلمية تنزل بالقضية نحو المجهول:

يا غزّة، الشّماء، موتي حُرّة - لا تَنشُدي نَصْراً من الجبناء -
 فأولاء - أرباع، الرجال - وأصبحوا يتسابقون - إلى اللواط - أولاء -
 كَرزائنا في الظّهر - يطعننا، يَبْثُ - سموه السوداء - في الأجواء
 كَرزاي، يرقص، للمذابح - فَرحة - ليعود - في صُرماية - الأعداء

ليس هؤلاء في عين الشاعر سوى أرباع رجال شيمتهم الجبن والطعن في الظهر ومناصرة المذابح، وكأنها تمارس بعيدا عند شعب غريب أو مجهول، حتى أن الشاعر يستدعي شخصية (كرزاي) كأيقونة للعمل تحت إمرة المحتل في وقت يطلب فيه من الحاكم امتلاك زمام الأمر وتنفيذ ما يريده المحكومون وما ينشدونه من حرية وتقدم.

هذه صورة للعدو الداخلي في منظور الشاعر المتمرّد، الذي يعتقد أن " كل مصائب الوطن العربي ومحنه وانكساراته وهزائمه المتكررة مصدرها داخلي قبل أن يكون خارجيا، فنحن منهكون من الداخل بعملاء بيننا يعملون لصالح محتليننا من الغرب الاستعماري وصنيعته (اليهودية).¹⁵ بل يذهب عمر بن قينة إلى الاستدلال على هذا الاعتقاد حين يرى أن الأحداث كشفت أن "الصهاينة الذين بيننا في الوطن العربي عموما أكثر خطرا من صهاينة الخارج (فلسطين) المحتلة... صهاينة الداخل هم الذين ضيعوا فلسطين في 1948"¹⁶، وما زالوا يساهمون في ذلك من حيث أرادوا أو لم يريدوا.

هذه الصور الثلاث التي يوردها الشاعر بهذا النظام الشعري تتسم بخصائص أهمها:

- كونها صريحة مكشوفة، وكأن الكشف هنا أنسب للقبح الموجب للفضح والتهويل، فلا يجد القارئ التواء في المعنى ولا يتعب في تأويل المضمّر، غير أنه يستلذ الصورة البشعة عندما يحولها الشاعر إلى مطابقة مجازية للواقع المعبر عنه؛ و"الصورة القبيحة المستبشعة في الواقع يمكن أن تتحول إلى صور لذيدة في الفن"¹⁷ حين تدفع القارئ إلى الاقتناع بصدق الصورة وقوة دلالتها.
- الخطابية اليائسة التي صاحبت شعر القضية الفلسطينية حاضرا بقوة في هذا النص، وهي خطابية بديلة عن الخطابات السياسية التي تتردد على أفواه الساسة دون أن تحمل للقضية غير الخسارة، لهذا تميزت بحدة الاتهام وكثرة التوصيف المعيب للقادة ومن يتولى ظاهريا إدارة الأحداث في هذه المنطقة.
- إن ترتيب تلك الصور على ذلك النحو مؤشّر على صدمة الشاعر من هول المأساة التي باتت قدر الفلسطينيين، فلا العالم الكبير (الدول العربية)، ولا الصغير (دول الطوق)، ولا الوسط الأصغر (السلطة الفلسطينية)، استطاعت تحقيق شيء ملموس يحد من معاناة هذا الشعب المضطهد مسلوب الأرض والقرار؛ فليس غريبا إذن أن يكفّر الشاعر بكل ادعاء يصدر من أي من هذه الجهات بالسعي لحل هذه القضية القديمة الشائكة.

- على الرغم من انتصار أهل غزة ومباركة الشاعر له، وهو ما استدعى نظم القصيدة كما يظهره عنوانها، إلا أن جل القصيدة مخصص للإدانة والالتهام في شكل هجاء مر، ما يعكس عدم اطمئنان الشاعر للوضع عموماً، فأنظمة هذه الأوصاف الدنيئة التي تَخَيَّرُها لتمرده لا يمكن أن تحقق انتصاراً أو تحافظ عليه، بل الخوف من قلبه هزيمة - إن تحقق - وارد جداً، لذلك وجدناه ينزل بالخطاب إلى الحضيض في محاولة لاستنهاض الأمة من أجل مراجعة ضرورية للمسارات السياسية المتعلقة بهذه القضية.

إن تشتت المسؤولية عن هذا الوضع الفلسطيني المزري يبرر تمرد الشاعر وإبداعه الصور المتطرفة التي تحاول التعبير بإخلاص عن واقع الحال، وإذا كان حليم بركات يسأل "من يتحمل المسؤولية الأولى في فشل العرب؟ هل القوى الخارجية هي السبب الرئيسي في شل الحياة العربية؟ أم تقع المسؤولية على الدولة التسلطية والطبقات والعائلات الحاكمة؟... أم هل تقع المسؤولية على هيمنة الجماعات الوسيطة على حساب المجتمع والدولة والإنسان؟"¹⁸ فإن المقدسي يحملها جميعاً مسؤولية ذلك الفشل، وبخاصة القوى الداخلية والإقليمية، لأن القوى الخارجية مكشوفة أهدافها وممارساتها، ويمكن الحد من خطورتها بوسائل النضال والمقاومة كما حدث في بقاع شتى من البلاد العربية. وهكذا يجد الفلسطيني "نفسه مسحوقاً تحت مثلث الهيمنة: هيمنة إسرائيل على حياته، وهيمنة السلطة الفلسطينية التي تمارس عليه بضغط من إسرائيل وأمريكا مختلف أنواع التسلط بما فيها التعذيب والسجن، وهيمنة الحملات والجماعات الموالية للسلطة."¹⁹ فكيف يمكن لشاعر فلسطيني أن يركز على جهة واحدة؟

خاتمة ونتائج:

إن الاتجاه نحو التمرد في الشعر العربي المعاصر ليس موضحة العصر، بقدر ما هو خيار حتمي بالنظر إلى حجم الرفض الذي يعبر عنه الشاعر المعاصر تجاه الأحداث التي يعيشها الإنسان العربي داخلياً وإقليمياً. أما الشاعر الفلسطيني فهو أحقهم بهذا الرفض إذ يرى قضيته التي طال أمدها وهي بين أيدي (الأشقاء) (المجتمع الدولي) لم تحقق من النصر غير الخطابات الجوفاء والوعود الكاذبة.

ويمكننا أن نلخص نتائج هذا البحث في النقاط الآتية:

- تمرد المقدسي حقيقي نابع من تجربة مريرة بسبب احتلال بلاده في ظل ما يراه عجزاً عربياً عن فعل شيء ذي بال في سبيل إنهائه، هو تمرد حقيقي غير مفتعل ولا ظرفي، بل غائر في عمق إحساسه بالظلم العربي والعالمي على حد سواء.
- إن لجوء الشاعر إلى معجم سوقي وقاس محاولة لإظهار مدى شعور الإنسان البسيط بالأسف والحسرة لما آلت إليه قضيته الأولى، فهو بهذا المعجم كأنما ينقل لنا بواقعية مفرطة ما يمكن أن يقوله رجل

الشارع بعيدا عن المنابر الرسمية، حين تنفلت المفردات المعبرة عن واقع الحال عن كل ضبط أو مراقبة، فتتمادى في الكشف والتعرية غير آبهة بالخطاب الموازي الذي يلتزم أقصى درجات التهوين والتلطيف.

– يلجأ الشاعر إلى شعرية القبح سبيلا لتصوير ما يراه واقعا مرا يزري بشعبه وأمته، ذلك القبح الذي وحده القادر على إفراغ شحنة الشاعر النفسية، حين يشعر بالعجز عن تغيير الواقع لأنه لا يملك السلطة ولا القرار، فيكون سلاحه دقة تصوير يُسَخَّرُ أدوات لغوية شتى مثل المبالغة والتضخيم والتعميم، وصولا إلى غاية كبرى يروم تحقيقها هي الفضح أو تشكيل جو فضائي انتقاما للضعفاء مثله من أولئك الذين يَعُدُّون فيخلفون، ويحاربون فيهمزون، ويفاوضون فيضيعون، وما إليها من ثنائيات.

– يشكل شعر المقدسي سجلا لما يجري من تطورات في القضية الفلسطينية؛ ذلك أن شعره يتتبع القمم العربية في تسلسلها وخيبتها، ويعلق على المواقف والتصريحات الصادرة من هذا الزعيم أو ذاك، ويعيد رسم الأحداث الفردية والجماعية بطريقته الخاصة، وهو بهذا شعر مناسباتي بامتياز تدعمه لغة خطابية وتصوير مكشوف، بل إن الشاعر يُصَدِّرُ كل قصائده تقريبا بعبارة تحدد المناسبة التي استدعتها، غير أن هذا الوصف لا يراد به التقليل من شعر المقدسي إذ العبرة بما تقدمه القصيدة من جمال على المستويات الشعرية المختلفة.

هوامش البحث:

¹ أحمد حسن المقدسي شاعر وأكاديمي عربي من فلسطين. ليس له ديوان مطبوع، لكن مجمل قصائده موجودة في المواقع الإلكترونية وأهمها موقع عرب تايمز الذي خصص نافذة إلى ديوان يجمع قصائده منذ 2007 إلى الآن بعنوان (قصائد المقدسي)، وهو مشروع ديوان مقترح للطبع بعنوان 'قصائد من فلسطين'. يبدو أن المقدسي حسب رأي صاحب الموقع لا يهتم بالشهرة أو الألقاب بقدر ما يرغب في التعبير عن رؤاه الشعرية المتعلقة في مجملها بالقضية الفلسطينية. ينظر الرابط:

<http://www.arabtimes.com/Ahmad%20Hassan/indexx.html>

² إدوارد سعيد. المثقف والسلطة. ترجمة محمد عناني. رؤية للنشر والتوزيع. 2006

³ أحمد حسن المقدسي من قصيدة قمة الخيبات. الرابط:

<http://www.arabtimes.com/Ahmad%20Hassan/09.html>

⁴ المقدسي. الديوان. <http://www.arabtimes.com/Ahmad%20Hassan/04.html>

⁵ ألبير كامو. الإنسان المتمرد. ترجمة نهاد رشا. منشورات عويدات - بيروت. ط3. 1983. ص18

⁶ المرجع نفسه.. ص107.

⁷ المقدسي. الديوان. <http://www.arabtimes.com/Ahmad%20Hassan/354.html>

⁸ المصدر نفسه

⁹ جابر عصفور. ص192

¹⁰ المقدسي. الديوان.

¹¹ المصدر نفسه

¹² المصدر نفسه.¹³ المصدر نفسه.¹⁴ المصدر نفسه.¹⁵ عمر بن قينة. شظايا وتصدعات. دار الأمة- الجزائر. ط1. 2002. ص195.¹⁶ المرجع نفسه. ص 196.¹⁷ جابر عصفور. رؤى العالم (عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر). المركز الثقافي العربي.- الدار البيضاء. ط1. 2008.

ص188

¹⁸ غربة الكاتب العربي. دار الساق. بيروت. ط 1. 2011. ص. 330¹⁹ المرجع نفسه . 345.

مراجع البحث:

المصدر:

أحمد حسن المقدسي . الديوان.

<http://www.arabtimes.com/Ahmad%20Hassan/indexx.html>

المراجع:

- إدوارد سعيد. المثقف والسلطة. ترجمة محمد عناني. رؤية للنشر والتوزيع. 2006

- ألبير كامو. الإنسان المتمرّد. ترجمة نهاد رشا. منشورات عويدات - بيروت. ط3. 1983. ص1

- جابر عصفور. رؤى العالم (عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر). المركز الثقافي العربي.- الدار البيضاء. ط1. 2008.. ص192

- عمر بن قينة. شظايا وتصدعات. دار الأمة- الجزائر. ط1. 2002. ص195.

- غربة الكاتب العربي. دار الساق. بيروت. ط 1. 2011. ص. 330